قصص

الهجرة إلى غير المألوف

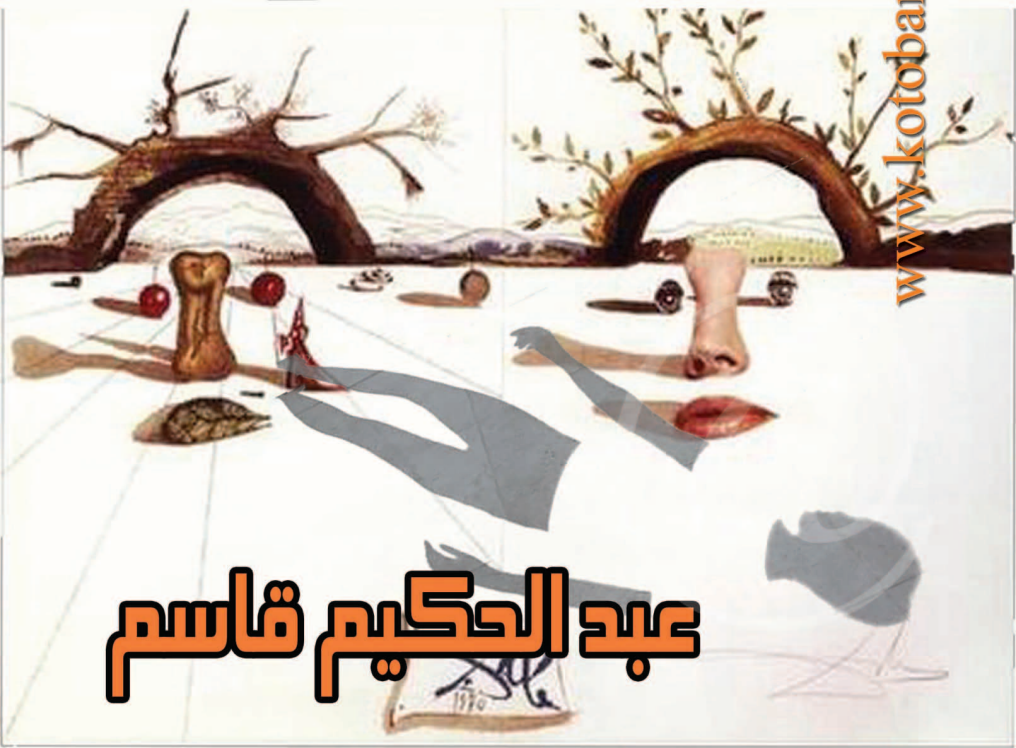

عبد الحكيم قاسم

الهجرة إلى غير المألوف

ديوان قصصي

عبد الحكيم قاسم

الصوت

أجري، لا أدري ما الذي أهرب منه ولا الذي أبحث عنه، لكنني أجري بكل ما في القلب من عزم وما في الجسم من مروة.

صفا المصابيح على جانبي الشارع، يدهشهما وقـع خطواتي على ثلج الرصيف، ينظران إلي بعيـون صـفراء تتسع دهشة واحدة بعد الأخرى، وأنا أحث الخطى، تغـوص مني الأقدام في هشاشة هذا السكون السرمدي المليء بأسرار الظلال الشاحبة والضوء الأصفر.

هذه أرض النهار فيها وجيز وشمس معلولة تسـطع على أرض مكدس فوقها الثلج، والليل يمد جناحيه فيها علـى ثلاثة أرباع دائرة اليوم، وأنا أدور يائسا مكدودا فـي هـذه الدائرة الباردة المبلولة مخنوق القلب، أعرف أنني سأمشـى إلى يوم الدينونة، وإنه لمحزن أن أقدامي لا تترك في هـذه الأكداس من الثلج على الأرض ـ أثرا.

حينما خرجت من بيتي هذا الصباح فـي الخامسـة رأيتها، السيدة وعربة طفلها. كل يوم في هذه الساعة وفـي هذا المكان أراها فيمتلئ قلبي أمانًا، إنهـا تميمتـي، وربمـا

أخشى أن تفوتني مقابلتها ذات صباح أكثر مما أخشى أن أتأخر على عملي. وإذا ما وازتني على الجانب الآخر من الشارع ماضية عكس اتجاهي، تشربت حواسي تلك العرامة الكامنة في رسم أم؛ والدة تحمل وليدها ماضية لشغلها.. حينئذ يجلجل في قلبي غناء أسيان، تراتيل حضرة، استغاثة مؤذن، أو آهات من مواويل الصبر.

لكنه الصوت العصي، الصوت الذي لا أستطيع غناءه. سأظل أغني حتى أجده، مبحوحا ثقيل القلب. لو أنني كففت لو أنني وقفت، إنني - إذن - سأسقط ميتًا.

أمامي اليوم – وكل يوم – عمل شاق حتى المساء. يبهظني الإشفاق والوجل، ولكنني أمضي بلا تردد. لم أكن أتصور أبدا أنني أملك القدرة على استمراء العذاب، والتعلق بالوهم الكامن مخبوءا خلف الحقائق الصقيلة السطوح الحادة الزوايا. كأنني أقول، ماضر لو امتلك القلب كبرياء الظن بعد أن استحال كبرياء الحقيقة، إن الواحد إذن يألم ولا يبث، وتبقى له قدرة الحدب على الأشياء.

وحينما نزل هذا الصديق برلين الغربية طاف بي في ذات مساء جلست قبالته محطما متعبا، وهو أطل علي بوجهه السمين وملامحه الوسيمة ..

لماذا..؟ أي سؤال معضل عويص الإجابة يرمي بك في هذه الغربة وفي هذا الشتاء..؟

يقول وأنا صامت. ونحن هنا أيضا في صمت، في غرفة الاستراحة حول مائدة غذائنا. عرب وأتراك وإيرانيون وزنوج وغير ذلك. نلوك اللقم وما يوصلنا ببعضنا من كلمات ألمانية عاجزة. هل أطل عليهم من فوقهم بوجه سمين وسيم الملامح وأفدحهم بالأسئلة العجيبة. لا أملك هذه الفصاحة. وهزني هذا الزمن بأسئلته، يوشك أن يثقل عبؤها كاهلي أسقط بلا أدنى أمل في أن أقوم.

لكنني أتصنت على قلوب هؤلاء الرفاق أريد أن أسمع الأصوات. ناس من أزقة مدن جنوب آسيا، من أكواخ القرى في جنوب أمريكا، من غابات أفريقيا، غليظو الأقدام مبقعو الجلود شائهو الملامح. من فجاج الجنوب أتوا ونحن هنا التقينا. كيف هي في كل صقع من أصقاع جنوب الدنيا الجوامع والكنائس وحلقات الفرح وحلقات الحزن، كيف هي

القراءة والترتيل والعديد والغناء. كيـف هـي الأصـوات أتسمع.

أتذكر المقيدين بالسلاسـل إلـى مجـاديف السـفن، العاملين تحت وقدة الشمس في مـزارع القطـن والمـوز، العاملين في برودة الفبريقات الثلجية. أتذكر غنـاء النـاس المكبلين بالسلاسل، بالخوف، بالعجز، بالرغبة في أن يجـدوا الصوت العصي الذي لا يستطيعون غناءه. سأظل أغني حتى أجده، مبحوحا ثقيل القلب. لو أنني كففت، لو أننـي وقفـت، إنني ـ إذن ـ سأسقط ميتًا.

أضرب بأقدامي في الثلج والصمت والعتامـة حتـى لتدهش من تصميمي ولهوجتي مصابيح الشارع. هكذا كنـا جميعا ونكون، لا تسل عن السفن تمخر عباب المحـيط، ولا عن الطائرات، ولا عن شـواهق المـداخن علـى سـطوح المصانع الهائلة . لا تسل عن عدة الحـرب ولا عـن عـدة السلم، بل سل عن غنائنا واسمع لأصوات قلوبنـا. مازلنـا نغني، يزداد الغنى ويزيد فقرنا، يزداد النعيم ويزداد بؤسـنا، نأتي من أصقاع الجنوب حجيجا رثا بائسا يغني باحثًا عـن صوته.

نحن فريق من العاملين في هذا المصنع. من فوقنا يحلق ألماني حاد العينين مفرود الجناحين كحدأة عجوز ينقض فوق كل هفوة ويمزق صاحبها تمزيقًا. أسلم نفسي مع الآخرين لعذاب اليوم، ننخرط في العمل دائخين زائغي العيون.

من العاملين معي يربطني برفيق منهم أنه لا يعرف كلمة ألمانية واحدة. الصمت بيننا عميق وموحش حتى ليوشك أن يكون خوفًا كذلك الذي أحس به إزاء مناطق في نفسي موغلة في البعد والغموض. نتحاشى أن تتلاقى عيوننا أو أن تتقاطع في حركتنا سبلنا. لكنني أحمل ملامح وجهه في خيالي وأقول في نفسي أنها ليست سوى مفردات من الشوق والألم عرفتها في مكان ما وزمان ما، بل إنني ربما عرفتها في كل مكان وكل زمان. أتجنبه وأراه، أبتعد لكنني لا أنفصل عنه حتى كان أن أقبل علي.

الوجه فيه ابتسام ليس أنبل منه، وفرحة ليس أصفى منها. لوح كأنه يخطب من فوق صخرة تحتشد تحتها الدنيا وتسمع له..

ـ هنا القاهرة.

كيف أنني كنت نسيت هذا الصوت، حينما كان مذياع القاهرة يقول فيهتز العالم، حينما كان صوت القـاهرة هـو صوت المغلوبين والمقهورين والذين يحاربون حتـى تكـون الدنيا أحسن. تذكرت. عادت تتدفق في عروقي فرحة كانـت مطمورة منسية. حمدت لصديقي تحيتـه وتذكرتـه. مشـى ومشيت. كل منهمك في عمله.

أعود إلى بيتي في الثلج والصمت والعتامـة. كـان نهارا وجيزا ذا شمس معلولة، دام وهنًا ومات، لكنه بقي في قلبي يضيء وجه ذلك الرفيق في العمل، وإذا يغني قلبي فإن الصوت يعلو ويتضح.

القاهرة ٨٢/٧/١٣

عطية أبو العينين داود

كلما ازداد صخب هذه الدنيا، زاد صوته في ذاكرتي جلاء. وكلما تنكرتني الأشياء وبنت عن ذوقي وعبست في وجهي، كلما زاد بالسيارات، زاد تعلقي بعربته الأجرة القديمة، عطية أبو العينين داود.

كنت أفتح عيني صبح كل يوم، و قبل أن يكتمل صحوي يكون القلب قد امتلأ بذلك الروع المدمر في الخارج. لا أرى ما حولي ولا أحس به، ألقى اللحاف من هلي رجلي، أنهض واقفًا على ظهر الفرن، أقفز إلى المصطبة ، إلى قعر الغرفة، وأمي تهتف بي :

على مهلك...!

وأرد ملهوجا:

طيب..!

ويوقفني صراخ أمي على عتبة الباب:

البس طاقيتك...!

أعود على عقبي ، أخطف الطاقية من تحت الوسادة على الحصير، أضعها على رأسي وأطير:

زر طوق جلبابك...!

أنفخ حانقًا، أزر طوقي ثم أندفع:

البس حذاءك..!

أصرخ منتحبا يائسا:

طيب...!

أدس قدمي في الحذاء المتصلب كقالـب مصـبوب، مفروشًا بطبقة سميكة من الطين، لم يكن لـه ربـاط أبـدا. أضرب به الأرض وهو في رجلي حتى تدخل فيه القدم، وما يكاد حتى أطير خارجا.

ذلك الطقس اليومي الرائع تعدم ثلثاه قبل أن أصحو. يعصر قلبي ندم حارق ، أفساه بعد لحظة. فعربة عطية مـا تزال هنا، والناس بعد يحاولون دفعها ذهابـا وجيئـة حتـى تسخن عددها ويشتغل دولابها.

أقبل على الجمع، أهل ناحيتنا جميعا، رجالاً وأطفالاً، كلهم هناك، النساء أيضا. كتلة هائلة مـن الجلبـة سـاخنة حرقانة في برد الصبح الشتوي، منكبة على العربة الزرقاء. كل الوجوه سواء في الاهتياج، كل الأذرع نـافرة العـروق متوترة، كل الأكف ملتحة بجسم العربة، كل التقايا منزاحـة إلى الخلف عن رؤوس حليقة، كل ذيول الجلابيـب مشـمرة عن السيقان، وكل السيقان، وكل السـيقان مزروعـة فـي

الأرض، تنقلع القدم من مكانها لتعود ترطمه صانعة خطـوة والكتلة البشرية متلاحقة متحاضنة متكورة منحنية، تتحـرك إلى الأمام بهذه الألف ساق.

أندس في الزحام كالمسمار فـي الخشـب. ولا أزال أتملص وأتحرك مثل دودة لاهثة مهتاجة حتى أبسـط كفـي على جسم العربة على المعدن المدهون بطلاء أزرق كـاب. وكم كان ذلك رائعا.

أدس قدمي في الأرض، أشمر جلبابي عـن سـاقين نحيلتين بين سيقان الرجال، لكنهما ممتلئتان إخلاصا في دفع هذه العربة إلى الأمام. أرفع عيني لأجد عطية جالسا علـى كرسي السواقة، ممسكًا بعجلة القيادة، شاخصا ببصره إلـى الأمام، هذا الأب القادر يسحب في أعقابه هذه القلوب الألف الخافقة في مضاء لا ينحرف، يقودنا هذا الأب فـي غـارة على الصمت، يقودنا إلى لحظة تحقن كامنـة خلـف غبـاء الأعطال ملتفة حول أجهزة دولاب السيارة.

أثبت عيني على قفاه، عامود رأسه نازل على خـط كتفيه بعزم، لا أحول بصري عنه ودخان احتراق الوقود يملأ عيني وصدري، قلبي موصول بالخشخشات الصـادرة مـن

دولاب العربة، يتهدج الصوت الخشن متصاعدا في انفعـال إلى القمة التي أترقبها.

بالتدريج تستجيل العربة إلى خفيف كيان خفيف فـي أيدي الناس، يجرون بها فرحين، يطيـرون بهـا طيرانًـا، الصخب في الأوج، سحابة التراب منطلقة في الشـارع مـع العربة التي ترفعها الكيمان وتحطها الوهاء وسـط الزعيـق وهدير قلوب الناس وصراخ النساء مسـتحثات مهتاجـات. يوشك الدولاب أن يدور، الشيء يوشك أن يكـون ، ثـم لا يكون.

ونقف، تنفك قليلاً قليلاً مفاصل الجمع. ينحـل ذلـك الاجتماع اللاهث المكتوم إلى ضحكات وكلمـات متغرقـات متزاحمات. الأكف تركت أماكنها على جسم السيارة ، يتضح جرمها وسط حلقة الناس التي تتسع قليلاً قليلاً. يرمق النـاس العربة ضاحكين، عاتبين قليلاً، ومستشعرين مرارة العجـز أيضا. تمتد الأيدى تعدل الطواقي، وبفضول الجلابيب تمسح من على الوجوه حبات العرق.

وابتسامة عطية لا تحول، شمس لا تغيب. ينزل من العربة، يصفق بابها خلفه بعنف، يمرق خارقًا كفهد، وعلـى

وجهه تشرق طيبة أبوية. يكشف الغطاء عن الدولاب. أشب أنا على أطراف أصابعي وأطل برأسـي. أنفـاس سـاخنة ملتهبة، سحب من البخار تتصاعد من الأجهزة. يدس الرجل يديه الملوثتين بالشحم في جيب جلبابـه يسـتخرج مفتاحـا إنجليزيا يثبت به أشياء وبه يصل أشياء يختبرها.

يزيح الغطاء عن فوهة قلة ماء التبريـد، يعصـف البخار المتفجر بالغطاء يلقى به بعيدا والأخت زينب واقفـة بإبريق الوضوء الفخاري الأسود المليء بالماء، يمنحها الأخ الكبير عطية قبل أن يأخذ الإبريق منها نظرة حانية. في ذلك يقول عم محمد دواد مؤكدا:

الماء لا ينبغي أن يكون من الترعة! احـذروا مـاء الترعة للعربة! ما يصلح لشربنا لا يصلح لها! أقـول لكـم فافهموا!

يبتسم عطية لعم محمد داود، ثم يرفع الإبريق لأعلى يصب منه في فوهة قلة التبريد. وأنا فهمت حكمة العم محمد ووعيتها، نعم إننا الآن عالمون بالعربات وفرحون بعلمنـا. تقول الأخت الصالحة زينب:

من الطلمبة جلبت الماء، ليس من الترعة وحياة النبي الحبيب! قدر الله عليها أن تبقى أبـدا فـي إهـاب طفلـة لا تتجاوزه أخت عطية الصغيرة، حتى أنني لأخـاف أن أكبـر وأتجاوزها. أحبها وأحب تعلقها بالعربة وعلمها بها.

يعود عطية إلى كرسي السواقة، تكون هـذه إشـارة البدء. يحيط الجمع بالعربة. تكز الأسنان في تصميم، تمتـد الأصوات على إيقاع متصاعد متعارض مع صخب الدولاب، يسير هذا التركيب الذي يجلس عطية على قمته في كـدح لا يتراجع، في هيام صوفي. الأمل في قلبي يحضنه الخـوف. اللحظة وشيكة. أكتم نفسي. أدفع مع الجميع. ترتجف العربة من حركة الدولاب كذلك الطائر المعدني اللامع على أرنبـة أنفها تخف العربة، تجري، تطير في أيدينا. ثم تقـف فجـأة زاعقة زعيقًا مخيفًا. ينكسر حولنا على عنادهـا الحديـدي. تنكسر القلوب وتبقى الأرجل منزرعة في الأرض لمقاومـة الارتداء العنيف وحتى لا يجتاح الناس الرجة الرهيبة لحظـة مقاومة صامتة عنيدة المخاض عسير، لكن الـدفع مسـتمر حتى تولد وثبة الانطلاق، يزغرد الـدولاب دائـرا وتطيـر العربة منطلقة بقوتها الذاتية.

يكاد يقف قلبي فرحا، أرتاع أن تفلت العربـة مـن يدي. ألحق أمسك حامل القفف المثبت في المـؤخرة، أقفـز جالسا فوقه بين كومة أخرى من الأطفال أركن ظهري على جسم العربة ، أدع صخب الدولاب المنـتظم يتسـرب إلـى كياني. أنظر إلى وجوه الناس تبتعد وهم يضحكون في سعادة وقاماتهم تترنح من التعب. وبعضهم يجرى يلوح لنا محـذرا وشاتما، يطلب إلينا، إلى العيال العفاريـت أولاد الكلـب أن يتركوا العربة على الفور.

أستمرئ نشوة الخـوف وأنـا أرى الأرض تجـري منسحبة إلى الوراء تحت أقدامي بسرعة كبيرة، بينما الـدور على الجانبين صامتة الواجهات، والبهـائم السـارحة يملـن بالرؤوس الكبيرة. ومن العيون الكبيرة تطل نظرات مستفهمة منكسرة والمعزات تتقافزن على المصاطب تستخفها الفرحة. والبطات الثقيلات الأرداف تصوصـو مبتعـدة ، وأسـراب الفراخ تطير مذعورة.

لكننا نحن الأعلون. تطير بنا العربة فـوق الكيمـان وتنزل إلى الوهاد تدع وراءها الغبار وقدامها يسبقها تتعجب النساء ونحن قلوب الرجال للسفر. يلوح القاءـدون يتمنـون

للعربة السلامة. يا ربي. هذه السويعات السعيدة بين أغلى ما في جعبتي من رحلتي في هذه الحياة.

وعندما تنتهي البيوت وتعبر العربة القنطرة مستقبلة السكة الماضية إلى الأفق. هنا يولد في الكيان المعدني قـوة ماردة تخيفني وتعزل عطية بالغربة عني. تنفـرش أمامـه السكة مستقبلاً مطلقًا بلا حاضر ولا ماض. وينبغي على الآن أقفز نازلاً وإلى القرية أرجع.

أقفز وتقفز جماعة العيال من حاملي القفـف خلـف العربة واحدا واحدا، من هول القفزة ما نزال نجري نكـاد ننكفئ من سرعة أجسادنا التي لا سيطرة لنا عليهـا. تـرطم أقدامنا الأرض في عنف يخف رويدا ويبطئ خطونـا حتـى نتمالك أنفسنا، عيوننا شاخصة إلى العربة التي توغـل فـي الأفق بلا تردد تتصرم وراءها بهجتنا حتى تغيض وسـحب الحسرة تتجمع ظلالها على ازدهاء وجوهنا. نتنادى بعضـنا إلى بعض نتحدر بعضنا إلى بعض كاسفين.

يتلكأ النهار ومع النهار أتلكأ في ساحات اللعب، على مصاطب الدور، تحت النخلات في الجرن، لا شـيء عـن سيرة العربة يشغلني أو يداوي وحشتي. أتسلل خلف صفوف

المصلين في المسجد إلى باب المئذنة، أجرى صاعدا السـلم اللولبي المعتم، ذلك الطريق السحري الذي يعلو بي درجـة إلى ارتفاع شاهق يديخ.

أرتكن على السياج أدور معـه متحسسـا الحديـد الصدئ تمسح عيناي ودورة الأفق امتـداد هـابط الحـواف والطرق نازلة هاوية. أنظر من هذه السكة انطلقت العربـة. هي الآن في طنطا والبصر قاصـر عـن طـي المسـافات الشواسع. الشوق أكبر من الحول وعليه فالقهر أبيد.

أنزل سلم المئذنة راجعا إلى فراغ اليـوم المـوحش يمتد حتى أوبة العربة في المساء. أتسكع في الشارع أبحـث عن آثار الإطارات وبقع الزيت والشحم. يمضي بي طريقي إلى حظيرة العربة أمام باب دار أبي العينين.

يوم بناء الحظيرة كنا هنا كلنا. كـل النـاس. وكنـا فرحين. الضحك يقطع نياط القلب. وكل واحد حامل طوبا أو خالط طينًا أو جالب ماء. أما عم داود فقد اصـطنع لنفسـه مالجا من خشبة قديمة جافة يسوي بها قوالب الطـوب فـي الجدار ويقول:

لا يكون بناء من غير المالج وميزان الخيط والثقـل، فإن تلوى الجدار وتعرج ومال فلا تلومـوني ولا تضـحكوا علي، فبسطة الكف وحدها لا تقيم جدارا سويا!

ويضحك الناس كثيرا، ويطمئنون البناء، فيقولون له أن يده فيها البركة وأنه بإذن الله يستوي الجدار ولو لم يكـن مالجا ولا ميزان خيط وثقل.

ولقد تعوج الجدار وضحك الناس لكن فـي النهايـة بنيت حظيرة أمام باب دار أبي العينين تأوي إليهـا العربـة حين تؤوب من رحلتها كل مساء.

المساء يولد في قلبي قبل أن يحل. أعرف روائحـه ونسائمه وأصواته يتقبض قلبي وأنا أرى القرية تهدهد رويدا رويدا إلى كن الليل وأنا قلب صاح يرجو للعربة أن تـؤوب. أتسلل مقتربا من حلقة الرجال، لعل في سمرهم المسائي شفاء القلق الناشب في القلب.

يقول عم محمد داود عن عطية أنه كان عسكريا في الجيش المرابط. هؤلاء كانوا يكسونهم قمصانًا تقليا وسراويل قصيرة زرية يخجل الجندي أن يمشي بزيه هذا يعرض نفسه

على أهل بلده- يقابلونه على المحطة. يخلع ثـوب الجـيش ويلبس جلبابه قبل أن ينزل إلى البلد.

ويحكي إبراهيم شقيق عطية أن هذا قال لهم أنه يريد أن يشتري عربة. وهم قالوا له!

يا أخانا أنت تعرف، لا نملك سـوى نصـف بقـرة شركة مع علي أفندي المدرس، وإنا لذاهبون إليه مـن غـد نستعفي من الشركة ونأخذ نصيبنا من الثمن فضعه في يـدك تفعل به ما بدا لك!

ولم تتغير ملامح عطية ولم تغض ابتسامته. قال! افعلوا.

ويحكي إبراهيم أن الحول لم يحل حتى كانـت فـي الزريبة بقرة يملكونها، لهم حلابها بأسره في خزانتهم.

يطرق عم محمد داود قليلاً: إنه في هذه الساعة مـن جلسة المساء تكون الأصوات عميقة كأنها آتيـة مـن وراء الأشياء، ويكون الرجال كأنهم الظلال، والكلام يمشـي فـي عروقي يختلط بأمشاج لحمي والخوف يقبض على قلبي.

يقول عم محمد داود أن طرق السواقة خطرة. وأنـه من هنا لحد طنطا سكة بين قرى وأشتات كفـور وشـرازم

ناس، وإنه على هذه السكة يطير عطية حيث الشر مختبـئ وراء كل حجر والسوء خبيئة كل صدر. ويقول عم محمـد داود عن المسافة بين رحيل العربة في الصبح وأدبتهـا فـي المساء، هي مسافة مرهقة من القلق يطويها القلب كل يوم.

أنهض نافضا عن روحي الكابوس، أمشي: أبعد فـي تلافيف المساء. لكن العربة بعد لم ترجع. أنصت. لا شـيء سوى الأصوات المعتادة في أول الليل.

أفشد العيال. تحلقوا حول محمد شريف. ذلك الشاحب النحيل يحبسه الكتاب وحفظ القرآن عن اللعب مـع العيـال طول النهار، لكنه في المساء يأتي عيناه تلمعان وقلبه ملـيء بالحكايات يقول:

إن العربة لو تعلمون أعصى قيادا من ثـور فحـل حرون! وها أنتم ترون عطية مع ذلك يروح بها إلى طنطـا ويأتي كل يوم بلا اختلال...!

كيف يكون ذلك؟

ثم يشف صوت محمد شريف حتى تصـير الجلسـة حلما غامضا يقول:

إنه حجاب الحفظ الذي اصطنعه شيخ الكتاب لحفـظ العربة والذي يعلقه عطية في مرآة السائق! عندئذ صـرخت به:

وماذا لو سقط الحجاب مرة من علاقته؟

ارتجف من الخوف. لقد سمعت كل الحكايـات. لـم تفتني واحدة. وما من مسافر عاد إلا وسـمعت مـا حكـاه للرجال بعد أن عاد. كل الأخبار عن ناس الـبلاد وأشـرار الكفور. كل هذا سمعته ورأيت الموت فـي سـجن مخيفـة متربصة بابتسامة عطية الأبوية الحبيبة.

هذا الخوف عندي كامن في منطقة من مناطق الظن ولا يطولها ترجمان القول. خوف يؤرقني ولكنه لا يتحـول إلى خبر يبث. حتى يولد صوت العربة، جنينًا في رحم الليل، ثم ينكشف الشارع عن كشافيها يسطع نورهما ويعشي عيني. أقفز فرحا والعربة تمر بي.

أجري وراءها أضواء مؤخرتها حمراء وخضـراء تتخالط دوائر في عيني العشيانتين ما زالتا مـن الكشـافات. أجري أتعلق بحامل القفف مع باقي العيال حتى نهاية المطاف عند دار عطية. تقف العربة ونتحلق حولها لاهثين. عيناهـا

تنظر إلى الأمام في ثبات تفتشان طيات العتمة طيات العتمـة تفجآن الهوام الهواجع تطيـر تقـاطع مخروطـي الضـوء المحدقتين وجسد العربة يرتجف بحركة الدولاب.

تفتح الأبواب وينزل الحاج عوض تـاجر المواشـي الذي يسافر إلى طنطا كل يوم اثنين. وكذلك ينزل مصـطفى بدوي المريض بداء الطحال والذي كان في طنطا ينشد طب الحكيم. ينزل هؤلاء وينزل غيرهم ويلتف الناس حول عطية. ومن جيوب الصدارات تخرج محافظ النقود الكبيرة. يدفعون الأجر، يتأبى وهم يلحون ضجة دولاب العربة تغطى علـى حرارة العزائم.

يركب عطية العربة مرة أخرى ويغلق بابها وراه ثم يدخل بها بطيئًا إلى حظيرتها. هي لنا إذن حتى الصبح. وفي الصبح نكون هنا جميعا في احتفالنا الصاخب بميلاد الحيـاة في دولاب العربة. نعم . أعرف هذا ومـع ذلـك آدي إلـى فراشي مخنوق القلب.

هكذا كل مساء. واليوم بقيت أنتظر العربة حتى تأخر المساء وجاءت أمي جرتني من معصـمي وأدخلتنـي فـي فراشي أتقلب يقظان مفتوح العينين أتسمع، أترقـب صـوت

العربة بين أصوات أول الليل وقلبي مشقوق كأرض محروثة متأهب للنبأ الفاجع.

طار صراخ زينب في السماء كلسان لهب، كثعبان مجنح والحلم فر مني إلى غياب سحيق لا يطوله وهمي. ركب الرجال المطايا على ذات السكة يقتفون أثر العربة وسائقها، وعادوا به محمولاً محطوما أعدت له وسادة في الغرفة القصية وعم محمد داود توسط حلقة الرجال. في الصبح التالي حكى لهم:

إن عطية كان طائرا بعربته على السكة، وأنه في طيرانه هذا فاجأ دجاجة هرسها، وأنه لهذا أوقف العربة ونزل منها ينظر. وأنا كدت أصرخ:

لماذا وقف؟ لو لم يكن توقف، لو لم يتلكأ ما كان مات أبدا!!

لكن عم محمد داود قال أن الدجاجة كانت سوداء ذهبية الريش، وأن عطية أمسكها، رفعها فاختلط بهاء ريشها بالدم والتراب، وأن أهل القرية أقبلوا، أحاطوا به انهالوا عليه بالعصي حتى سقط على الأرض فاقد النطق. الأصابيح بعد عطية صامته باردة والناس يتلكئون في الجوانب بلا عزم

ولا عزيمة أين عطية؟ هل طواه الموت حقا؟ أم أنه كان حلما ذلك الأب القادر يسحب في أعقابه قلوبنا الألف الخافقة في مضاء لا ينحرف، يقودنا ذلك الأب في غارة على الصمت، يقودنا إلى لحظة تحقق كامنة خلف غباء الأعمال متلفلفة حول تعقيدات الأجهزة.

كلما ازداد صخب هذه الدنيا زاد صوته في ذاكرتي جلاء، وكلما تنكرتني الأشياء نبت وعن ذوقي وعبست في وجهي كلما زاد حنيني لابتسامة الحسن الوسيم، كلما ازداد صمت الطرقات بالسيارات زاد تعلقي بعربته الأجرة القديمة.
عطية أبو العينين داود.

القاهرة في ١٩٨٦/٧/٢٨

طبلة السحور

والرجل يمضي بها في ليل الحارات كتلة من الظـل في شفيف العتامة، والقرية كلها قلوب مشدودة الجلد مسـلمة للأصداء العميقة الغليظة، الإيقاع مبهم قادم من أعماق الوقت ومنته فيه، ديمومة مدورة باهظة نابضة، بينـا رق الفـؤاد المستلب نهب للصوت وللتذكر.

إنني لما رجعت من غربتي الطويلة مشـيت بظهـر البلد مترددا متحذرا خجلانًا، أقرئ السلام مـداهنًا متزلفًـا، ويجيء رد السلام مرحبا جهيرا، لكن السمع لا يخطئ جسم الصمت متكورا في قلب الصخب. تنتكس اللهفة ويبور القصد الحسن.

وقد وجدت أن دور قريتنا تغيرت أشكالها ومواقعها، والحارات التي عرفتها وألفتهـا ضـلت الآن بـين الـدور وتحيرت. والناس ليسوا الناس. الكبـار هرمـوا والشـبان اكتهلوا، والكل ضاعوا في دنيا ازدحمت بخلق كثيـف مـن أطفال وعيال وصبيان وبنـات يخيفنـي ومـض عيـونهم بالنظرات وصخبهم بالضحكات، وكيف تغيم ملامح وجوههم كلما مررت بسحابات تساؤل وارتياب حتى أني قبل مقـدمي عليهم يمتلئ قلبي باجتماعهم واقفين في الباحات أو جالسـين

في ظل الحيطان. صاروا غرباء على أهلي وناسي بما جـد على قديم سنتهم من بدع في ارتداء الثياب، وبما طرأ علـى رصانتهم من نزق في الحديث والإماء والإشارة صار لأهل قريتي مثال في الحسن وفي التأنق واللطافة يغيب عني رسمه وتتنافر ملامحه وتشذ عن تعقلي صفاته.

وفي الغيط تغيرت المحاصيل والمواسم والمناوبات، وخدمة الأرض وما يستخدم لذلك من آلة. أمشى. أنظـر. لا تجد قدماي طريقًا إلى إلف الأشياء والأنس بها. لكننـي أرى شابوري على البعد . لمحته سارحا وعلى رأسه خرقة يتقـي بها الشمس. أسرعت لحقت به. ياربي، إن صديق الطفولـة والصبا ما زال على حاله أيام كنا نلعب معا، وبينـا فتكـت السنين بي في غربتي، مر الزمن عليه خفيفًا لم يعلـم علـى كيانه علامة، وأنا أجدبت فروة رأس وابيضت لحيتي وشـاخ جلدي وتغضن حول عينين ضعف بصرها.

كنا أصحاء وكان الشابوري معلولاً، فأي علـة فـي العلل تلك التي حفظت محلها من عوادي الـزمن، الملامـح الطفلة والعود القصيم والأطراف الدقيقة الهشة، وذلك الكيان الذي استودع سر الطفولة والاكتهـال فـي تكـوين قريـب

مطاوع، ناء مراوغ. كلمت رفيق اللعب القديم: " هل نسـيت عهدنا يا شابوري؟" نعم: كان الشابوري أحد رفاق لعبي: لـم يكن كباقيهم، لكنه كان واحدهم على أية حـال، كـان فقـط معلولاً جمعت العلة فيه مزيجا عجيبا من الهرم والطفولـة، جمعتهما في بدن ذابل هش وجلد ناعم متغضـن، وملامـح كئيبة عجوز، فهو صبي يملك سر السنين، ورجل فاقد بطش الرجال. طفل بلا طفولة، وكبير بلا حـول. قـال مجاوبـا سؤالي: " ما نسيت العهد إنما تلهينا عن التذكر هموم المعاش والانشغال بالزوجة والعيال!" كان يلعب معنا، ينزق مثلنـا، يجن ويخاطر، يخرف ويهرف، يثقل ويسخف، يهمد ويبوخ، يكيد ويسخر، ونحن نكيد له ونسخر منه، وأحيانًا نفرح بـه ونحبه، وأحيانًا نلاحقه ونؤذيه.

لكنه يبقى دائما مخصوصا بحاله نائيـة بحقيقتـه. لا تكون معاشرته وصالاً ولا يكون لمسه يقينًـا. جـوهر لـه صفات غريب منطقها على إدراك الحواس.

سألته: " أما زالت تدور بالطبلة يا شابوري؟" فإن أباه الفقي الذي مات وتركه وأمه العمياء العجوز أورثهما حصـة شائعة في طبلة البلد، على الشابوري الابن أن يدور بها فـي

الحارات ساعة السحور. أياما معلومة من شهر رمضـان. الحكاية خالطت أوقات لعبنا، وهـي الآن تشـحب عبارتهـا وتهمد صورها ومشاهدها في همود نفسي وجوعي وظمئـي ومعاناتي اليوم الرمضاني القائظ، والحكاية في عقلي اخـتلط معناها بمعنى الشابوري اقترابا من إدراكي واستعصاء على فهمي. أنظر له أرقب إجابته على سؤالي وهو يقول لـي: " أدور بالطبلة في أيامي والشركاء كل فـي أيامـه!" قلـت: " ومازلت تمر ببابنا أيضا؟"

كنت أفيق من نومي على فجيعة الضحى العالي، وأن أحدا لم يوقظني للسحور. يعصر الفوت قلبـي. أقفـز مـن فراشي على ظهر الفرن إلى قعر الغرفة، فإلى وسط الـدار. أجرى إلى أمي، أجذبها من طوق ثوبها، آخـذها إلـي مـن انشغالها، أصرخ بها: " يا أمي! أمـي ! لِـم لَـم تـوقظيني للسحور!؟" وأبكي ، موصول قهري بنهر دمع حـارق فـي داخلي ، وأبكي: " آه يا أنا" تواسيني أمي منفطرة القلب مـن أجلي وضاحكة علي: " يا بني! هذا ما أكلنا منه في سحورنا! ها هو! هنا! خذ!" وأكره أمي كما لم أكره شيئًا من قبل. إنها لا ترى لهفتي وشغفي، تنكر شوقي وتستخف بحنيني. أصرخ

بها: " لا أريد طعاما! لا أريـد طعامـا! أريـد أن أصـحو للسحور وأن أرى الطبلة!" تكلمني أمي معذبة الملامح بـين الضحك والرثاء "إذن الليلة يا بني أوقظك للسحور! الليلة يـا بني! الليلة إن شاء الله!" لا تعزيني الكلمات. أبكي حزني لما فاتني وأقول لها: " هذا ما تقولين في كل مرة، ولا أصـحو للسحور أبدا آه يا أنا!"

تذكرت كل ذلك وأنا معلق البصـر بملامـح وجـه الشابوري أرقب جوابه على ما سألته، أما زال يمـر ببابنـا أيضا؟ والشابوري قال لي: " نعم، ليس لـي إلا أن أفعـل!" صمت هنيهة كاسفًا، لكنني عدت متشبثًا، أسأل حنانًا: " وإذن تتذكرني وأنت بإزاء بابنا؟!" قال: " أتذكرك!" سألت مهتاجـا ملحا: " هل تشوقت أو دعوت؟" قال: " ظننت دائما أنك بخير في غربتك!" تنهدت مرخي الجفنين مكسورا أهمس لنفسـي أنني لم أكن أبدا بخير في غربتي.

لكنني تذكرت شابوري بقوة الآن، الذي عرفته فيـه والذي لم أعرفه عنه، تذكرت شبحه يترقص حاملاً الطبلـة مرسوما بالظل على العتامة الفضية ارتعدت من داخلي. إنني

في رمضان هذا لم أسهر. أمضي من غير سحور إلى جوع النهار. شردت. والرجل استأذن ومضى.

وقفت على رأسي غيطي. الشجيرات هزلانة ضاوية شاحبة على طول الخطوط في فداني الصـغير.! استعصـى علي سر عجزها وآفتها قفلت راجعا، أمشى بجـوعي فـي النهار الرمضاني القائظ. جائع بلا ورع ولا نية، فقط لأدفـع عن نفسي مذلة أن آكل في نهار الصـيام والنـاس حـولي جوعى. أمر على دوارنا، أقفرت شرفته من أبي وأصـحابه، وعلى الأرائك البلى والتراب.

أرقب المغرب ضجرا ملولاً. إن هذا ليس موعـدي، يمضي بي إليه الوقت قهرة واستلابا. اصفرار الشمس هـذا على الفروع وأعالي الحيطان إنما هو شحوبي وكآبة نفسـي. هذه الساعة قبل غروب الشمس وأفول النهار ساعة حسـنة، وكان ينبغي أن تكون هادئة، لكنها تروعها وتزلزلهـا مـن أساسها مكبرات الصوت تجأر بأشرطة التلاوات والمـواعظ المرعبة.

ساعة حسنة، أريد أن أخلصها من مخالب الضجة. أريد أن أرى أبي واقفًا في هذه الشرفة قبالتي، في أثير شفقي

أحمر، في جو من تلاوة الشيخ أحمد المبحوح الصوت. تلاوة خفيضة في كل سمع، في كل بيت وفي كل قلب. أريـد أرى أبي قائما هناك ينظر ساعته الفضية، ثم يتملى لـون الوقـت حوله، فإذا ما أذنت انتدب الشيخ أحمد للآذان. لكن الشـرفة قدامي مقفرة أراها، والأرائك علاها التراب، وأنا صـموت تهرس الضجة سكينة نفسي حتى قمت إذا آن أوان طعامي.

جلست صامتًا في وسط دارنا الموحش معلق البصر بالمصباح الكهربي المشنوق من حبله في السقف. في الحائط الرف الطيني حيث وضع في الأيام القديمة مصباح الزيـت الملمع الزجاجة فصحت في نـوره الأشـياء. الآن يختنـق الضوء بضعف التيار فينكرني المشهد الذي حولي.

هذه الجدران لا رأت ولا سمعت ولا وعـت. هـذا الصمت المنصوبة سرادقاته المتربة في الباحـة أزلـي لـم يجرب إنسا. هذه الدار ليست دارنا ولا تشبهها، إلا كما يشبه القبر عنفوان حياة صاحبه وتوهجها جلست في الباحة تمتـد أمامي شواهد قبور التذكر وأنا الثاكل الوحيد.

في الزمن القديم كانت السهرة الرمضانية تبـدأ فـي دوارنا بعد العشاء والتراويح والحضرة والذكر في الجـامع

الكبير. وإذن يجلس أبي في الشرفة يسامر ضيوفه. ويرتـل الشيخ أحمد فقي الكتاب آيات القرآن من على دكته في آخـر الردهة. ويصنع العم حسن القهوة في ركنه قريبا من الفقي.

الآن أسأل نفسي عن السـحر فـي تلـك الأماسـي القديمة؟ أكان يفيض علي من فرحـة الأب بضـيوفه فـي الشرفة؟ أم من مجلس المقرئ على دكته وإلى جانبه من يفرد المصحف الكبير على حجره ويتتبع السطور بعينيه، أو مـن ينصت ويستعبر؟ أم كان السحر يأتي مـن مجلـس صـانع القهوة، قدامه يوش موقد الكيروسين، عليه الإبريق، وهنـاك من يساعد بغسيل الفناجيل أو جلب الماء أو المسامرة بحديث طيب؟ من أين أتى السحر في تلك الأماسـي القديمـة؟ درت بسؤالي من مجلس إلى مجلس، كان الدوار سعيدا والشياطين قد كبلت وأمن الليل، أمن كحضن الأم.

قمت إلى مرقدي هذا على ظهر الفرن في دارنا هذه. لم أكن راغبا في الخروج. لم يكن شـيء بقـادر علـى أن يحفزني إليه أو يغويني به، حتى ولا تلفت الصحاب يرمقون مطرحي الخالي فـي مجلسـهم فـي المسـاء الرمضـاني ويتساءلون. إنني كثر تخلفي حتى اعتادوه. وأنـا إن لحقـت

باجتماعهم بقيت صموتًا وقمت مبكرا. ينظرون في أعقـابي كاسفين. إنهم عجزوا عن أن يخلقوا لدنياهم الجديدة في قلبي تقبلاً، وعجزوا عن أن يخلقوا لكآبتي فـي صـخب دنيـاهم إنصاتًا وفهما.

أطير إلى دارنا فزعا كبومـة تخيفهـا الأصـوات والأضواء. أسرع الخطى تحت رجوم مكبرات الصوت تجأر بالتراتيل والغنج، بالموعظة الحسنة والـدعارة. أفـر مـن الضحك والزعيق، من خبط أوراق اللعب في الطبال. أدفـع بابي أفتحه. أجتاز مقبرة وسط الدار إلى مرقدي هنـا علـى ظهر الفرن. أنام كل ليلة مبكرا. أمضى عبر الليل إلى نهار رمضان دون طعام، أجوع حتى يـؤذن بالأكـل فـي دوره مرهقة مملة.

ابتسمت مكتئبا وأنا أتذكر طبلة السحور. كان الليـل دليلي إليها. الليل الرمضـاني اليقظـان بـالنور والتراتيـل والمؤانسة كان سكتي إلى الخفـق الحبيـب، إلـى الإيقـاع العجيب، الضرب على الجلد المشدود، لم أكن بعد قد شهدت الطبلة في عمري أبدا، وإن كنت عرفت دائما أنه منذور قلبي للرنين المروع. قدر مقدور على النطفة حتى وهي مازالـت

عاطفة ونية. قدر أحياني وأبقاني في الليالي القديمة سـهرانًا مراقبا، وهزمني النوم قبل الساعة السحرية، أفقت من نومي على فجيعة الضحى العالي.

حتى ليلة فتحت عيني على وجهي أبي وأمي يحيطان بوجهي جهمين مرهقين مهولين الملامح بالضـوء الشـاحب والظلال. كلمني أبي يسحبني من لجة النـوم إلـى شـاطئ اليقظة: " يا بني استيقظ! ها هي ذي طبلة السحور! استيقظ يا بني!" لقد أيقظاني ليلتها للمرة الأولى. وإذن فقد سقط الفـوت وانفك طلسم العجز وأدركت الطبلة.

كان ذلك قبل سنين طويلة تفصل ما بـين طفـولتي واكتهالي. وليلتها رفق بي أمي وأبي رفقهما بمريض. أغلق باب وسط الدار وراءنا. وأبي كلمني: " كانـت هـذه طبلـة السحور يا بني!" لم أدرك أيسأل أم يجيب، اختلط في عبارته الاستفهام بالتقرير حتى غاب عن العبارة البيان. كانت بهمـة شاحبة صفراء تشملنا تثقل على قلوبنا ونحـن نجـوز إلـى الغرفة وسط الدار المضوأ بالمصباح الزيتي الغبش الزجاجة.

وصوت الطبلة ابتعد، أوغل في البعد كمسـافر فـي رحلة بعيدة، يصعد في الطريق إلى الأفق مواليـا القاعـدين

وراء ظهرا مرسوما بخطوط الحـول والغـرم والكبريـاء، ويترك لهم قلقًا مرهونة به عقولهم وأفئدتهم حتى يئوب.

سألتني أمي: " هل تأكل يا بني؟" أجبتها فاترا عزوفًا: " لا! لا يا أمي!" إنني كنت قد غفرت لها أنها لم توقظني قبل ذلك لسحور. لا ضير. إنني كنت مدركًا موعدي على كـل حال. ذابت مرارة الفوت في معاناة تجربة اللحاق. وليلتهـا آويت إلى فراشي مرهقًا وقريرا.

وغربة كانت قد أوحشت بيني وبين أبوي حتى مـا ساغ لي قبل النوم أن أنزق أو أشاغب. دخلت تحت غطـائي وديعا. سألني أبي وهو يدثرني: " هل نوقظك للسحور كـل يوم يا بني؟" قلت له هامسا: " إنني بعد ذلك سوف أسـتيقظ لموعدي وحدي!" ثم أغمضت عيني مصطنعا النوم، وأبـي وأمي تركاني ومضيا لسحورهما ولشئونهما الأخرى.

وليلتها جافاني النوم كما يجافيني الليلة أيضا. وليلتها آنستني الأصوات ودبيب الناس في الدار وقرقعة المـواعين وأنفاس البهائم وأحلام الدواجن. والليلة تحيط بـي الوحشـة ويحيط بي الصمت يثقلان على قلبي ومـن تحتهـا تنـبض أصوات التذكر.

إلى الصبح حملت رغبتي فـي أن أرى الشـابوري متكورة في قلبي تعدم شهيتي وتفسد مزاجي وتلجئنـي إلـى صمت عميق. حتى تسللت خارجا وانطلقت باحثًا وأدركـت الولد في طريقه إلى الغيط وعلى رأسه خرقـة يتقـي بهـا الشمس. قال أنه جامع لأمه ملوخية لطبيخ اليوم، وسألني إن كنت أصحبه، وإن لم يكن بوسعي أن أنفصل عنه.

مشينا معا نتسلل بين أعواد الذرة العالية على أرض معشبة طرية مفروشة ببقع الشمس، نجمع أعـواد الملوخيـة الخضراء الطفلة الغضة، يفزع تسللنا الجـرادات النطاطـة، تقفز من عود إلى عود وأنا أضحك مع الشـابوري وأثرثـر وقلبي مثقل بسؤالي حتى تكلمت: " رأيتك أمس بالطبلة!" قال: " وأنا رأيتك أيضا!" حنقت حتى اختنقت بحنقي صحت. به: " إنك لم تشر ولم تحي!" قال:" أخجلني أن أبويك كانا هنـاك!" وإذن فإنني أيقنت أنه لا جدوى . كان الشابوري عاريا مـن حقيقة ليلة الأمس. سألت ملامحه وعينيه وإيماءه، واجهنـي بالاستنكار والبراءة في ملامحه وعينيه وإيمائه حتى خالجني الشك، هل أتهم الشابوري أو أتهم نفسي أو الصبح والصـحو

يبددان الحلم؟ أو أنها أمانة الرؤيا وقلـوب أضـر بهـا داء النسيان؟

يريد طريقانا أن يفترقا، لكنني لم يكـن بوسـعي أن أنفصل عن صاحبي، مشيت مع شـابوري حتـى دارهـم. انحدرت إلى وسط الدار من مدخل يشبه فتحة جحر الأرنب. قبل أن يسعني تمييز ما حولي في العتامة امتلأت خياشـيمي بروائح الكعك، الدسم والاختمار، غريبة ومتضاربة. ثم بانت لي الكومة على حصير يحيط بها من حولها الشـركاء فـي الطبلة.

تلك هي إذن صدقات الكعك السنوية لطبلة السحور، وهي هنا جمعت كومة لكي يقتسمها الشركاء فيما بينهم، وها هي ذي أم الشابوري تطرق متنصته، والكل صموت يراقبون ما اجتمع لهم من صدقة شاردين. حزنت لأننا بعد لم نخبـز كعكنا ولم نرسل إلى هذه الدار صدقتنا. لكنت عرفت كعكاتنا وسط الكومة. ولربما أوشك أن أعرف كل دار بما أرسـلت. الخبيز هو الدار. فإن التبس عليك فشم وتذوق. إنـك نـاطق اسم التي خبزت وأنت تبصق ما قضـمت. ابتسـمت حـين تذكرت كلمات أمي تحكي عن الناس وما خبزوا للعيد مادحة

وقادحة. الآن أرى ما حـولي. الشـابوري يضـع حزمـة الملوخية في حجر أمه ويجلس إلى جوارها صامتًا. وأنا ألمح الطبلة في الركن فأقوم إليها يكاد قلبي يتوقف عـن الخفقـان لهفة واستثارة.

مرخي حبلها جنبها في تعب، ملقاة هكذا جنب الحائط وإلى جوارها العصا الغليظة وقشرة الغاب. تقـدمت حتـى تقرفصت عن كثب. ثم تزحزحت مغيرا موقعي كـل حـين لأرقب الطبلة من زاوية أخرى. وكلما أدركت كم هو بسـيط ذلك التكوين، وجاف غليظ حتى ليوشـك أن يكـون قبيحـا بشائها، كلما ازدادت إحاطتي بذلك الشيء حنقت بما انـتكس حلمي به، وارتعبت أن أكون مخدوعا يضللني عن الحقيقـة بصري وبصيرتي.

قمت أتحسس الجسم الأسطواني المفرغ، ألمس نعومة الرق وخشونة الخشب. ثم رفعت الحبل بحذر شديد. وضعته حول رقبتي، وفي انحنائي التقطت العصا في يميني وقشرة الغاب في يدي اليسرى. ثم أقمت قامتي بطيئًا فارتفعت الطبلة معي من على الأرض خفيفة مطاوعة. ألصقت قشرة الغـاب بالرق الأيسر، ثم رفعت العصا لأعلى وأهويت بهـا علـى

الرق الأيمن فكانت ضربة مكتومة أزت بعدها قشرة الغـاب للحظة حتى التفتت أم الشابوري ناحية الصوت وزعقـت: " كف عن إزعاجنا يا ولد!" وضعت الطبلة مكانها برفق، يائسا أكثر مما أكون خائفًا.

تسللت خارجا والشابوري لحق بي. وقف قدام بابهم وأنا وقفت إلى جواره لحظة شـاردا ثـم سـألته: " طبلـة السحور.. ما هي؟" قال الشابوري على الفور دون أن تتغير ملامحه"" إنها ذلك الذي رأيت في الركن من وسط الـدار!" قلت له: " نعم!" لم يكن في حديثي مع الشابوري بعد غنـاء عدت إلى قدام دارنا.

وأنا الآن أريد أن أكون وحيدا مع يقيني وشـكي. إن المسألة تخصني وحدي. مضيت أتسكع أريد أن ألعب وأتقافز لكني يثقل جناحي قلبي، وأريد أن أبعد وأوغل، لكنني أبقـى قدام دارنا حيث وقفت أمس ومرت بي الطبلة.

ألم تشهد ذلك واجهة دار الحريـري قبالـة دارنـا؟ أسألها الآن عن حالها ساعتئذ، تطل علي كئيبة مرهقة دائخة تحت حمل الشمس، ذهلانة نسيانة، أسـأل شـمس الظهـر الباهرة الضوء عن عتامة الليل الفضية، تعشـيني وتـؤذي

أشعتها عيني. لا جدوى. في ذلك اليوم مـن أيـام طفـولتي البعيدة كان الخرس يحيطني.

لكنني تساءلت، أليست الحقيقة الموجودة داخلي أكثر الحقائق يقينًا؟ لماذا إذن أبحث عن برهانهـا حـولي؟ لمـاذا أشرط يقيني بما ليس من جوهره؟ الأليق بـي أن أنصـرف وأغمض، وأن أبتهل لإيماني، ذلك هـو كبريـائي ورقبـي مواعيدي، لا تأخذني قبل إداركها سنة ولا نوم.

أذكر الآن ذلك اليوم من أيام طفـولتي، أذكـره الآن وأنا كهل وحيد منفي في قعر غرفة في دار موحشة. نعـم. كانت مشاهد السهرة الرمضانية في دوارنا هـي علامـات طريقي إلى دركي. كنت أدور بين المقرئ وصـانع القهـوة ومجالس المتسامرين، ألبث في كل ركن آنًا ثم أقوم، يتشـبث بصري بالمشاهد أن تغور، تغرق في الضباب ويسطو النوم على يقظتي وولعي. ما أجلس حتى أنهض، العيون من كـل الأركان تراقب ترنحي وثقل أجفاني، أقـيم قـامتي، ألـزم انتباهي، أبقى على الذكر والترديد. فلقد عرفـت فـي تلـك الليالي القديمة أنني إن غفلت غفوت، وإن نسيت نمت، فيكون الفوت. هكذا حتى سمعت الصوت. خرجت له وحدي.

دار الشابوري بالطبلة فـي لياليـه، ودار شـركاء آخرون في لياليهم، وفي كل مرة قبعت قدام دارنا مقرفصـا في ظل الجدار ممتلئًا بالعتامة الفضية الجليلة موصول القلب بالصوت. يظل يعلو ويعلو حتى لا يكون شيء إلا هو. حينئذ أرى حامل الطبلة ينكشف عنه انحناء الطريق ظلاً قاتما على الأثير الفضي يترقص ترقصا عجيبا، ويبادل ضرب العصـا على رق أزيز قشرة الغاب في الرق الآخر، ويقترب فإذا ما حازاني جمدت وتضاءلت حتى لكأن الضرب والأزيز علـى الناحيتين من رق قلبي المشدود، وحتى تصير الطبلة النـواة من ظاهرة الكون، والبذرة من نمائه وينعه.

دار الشابوري بالطبلة أو دار بها غيره من الشركاء رجلاً كان أو امرأة لم أسأل عن الناس ولم أسـألهم. قعـدت لموعدي كل يوم قدام باب دارنا، أشهد الرنين يستحوذ علـى حواسي جالبا ما سواه، ثم يتجاوزني الصوت حتى يغيـب لا ينتقص شيء من عمق تجربتي ولا يرد شرط على سحرها.

ثم إنني كبرت. فرحت بنفسي أنمو، أقوى على ما لم أكن أقوى عليه، أطول ما قصرت عنه قبـل ذلـك حيلتـي، وأمشي في الأرض مرحا ومختالاً فخورا. لكننـي عجبـت

دائما للمرارة تخالط فرحتي بنفسي وتكبر معي بمقـدار مـا أكبر! لماذا؟ إنه كان المأمول ربما ، اقتدار الكبير أن يحنـو على الطفل الذي كانه وأن يقدم له على كل سؤال عذبه إجابة مرضية. لكن الواحد يكبر، يرحل عن شطآن طفولته، عـن ذاته الغضة متروكة على الشاطئ المهجور معذبة بأسـئلتها العصية. يبحر الواحد مبتعدا لا يشـفي الترحـل الوجيعـة القديمة.

إنني على كل حال كبرت، وأصبح لي مكـان فـي مجلس أبي وقول في سمر جلسائه، وكثير مما أولعـت بـه طفلاً أصبح بعد لا يليق بي، أن أرقب الطبلة، أتلهف عليهـا وأجري وراءها فرحانًا بها مخفيا عن الناس انشغالي بلغزها، لكن مخيلة طفل موءود بسؤاله العصي، يظل فـي حضـنه نابضا بلا جواب؟ إنني كبرت حتى قبلت، لكنني بقيت أعجب للمرارة تخالط فرحتي بنفسي وتكبر معي بمقدار مـا أكبـر. حتى عزمت على السفر.

اغتسلت من تراب دارنا ومن وحل حقلنا ولبست ثوبا جديدا ومشيت. ولما أراد ناسي أن يعانقوني كنـت حـذرا، خفت أن يتركوا بصمات قلوبهم على نصاعة بزتي، أبعدتهم

عني برفق واستقبلت سكتي. سافرت. من حقيقتي إلى حقيقتي ارتحلت، من عبء المعاناة إلى نعمة التذكر فررت.

هأنذا أرقد على ظهر الفرن حيث رقدت طفـلاً فـي غرفتنا في دارنا القديمة. كم غبت عن هذه الـدار؟ خرجـت يافعا ورجعت كهلاً في سنينن بلا عدد. فما الذي نادلني إليه؟ وما الذي ندهني عنه؟ وإذا كنت قد بنت عن مكـانني، فيمـا عجز عن إجابة مسائلي؟ أم بما عجزت عن فهـم إشـاراته؟ هذان هما طرفا حقيقة سفري، وهذان إنبهما على واسـتغلقا علي تعقلي وإدراكي. وإذن فقد كان العجز على أيـة حـال، وكان التبرم والتقلق والعزم على الخروج.

لكنني عدت. أبي ترك في قريتنا دارنا والفدان الذي بقي من أرضنا وحصة شائعة في دوار عائلتنا، وأنـا هنـا لأرعى مصالحي، لأرى في أمر حقلي وداري. دار مقفـرة وحقل بائر. هذان هما العمر، وأنا أقف قدام لغـز عمـري حائرا عاجزا، وإزاء الخراب في الدار وفي الحقل، أبـأنني غبت؟

إن الذي حولي مشتق جوهره من الـذي بـداخلي، أدرك القرابة الوشيجة. وحينما أنشبت الآفة مخالبها في قلبي

عدت بالخراب على داري وحقلي. لكننـي عـدت. كنسـت مطرحي هذا وفرشته. درت في الدار أزيـل التـراب عـن المشاهد فإذا تحته الصمت والهمود، عدا البين علـى الـذي تركت وخلف لي الفراغ، فأي صلوات قدام قبور الـذكرى، وأي ابتهال وتسابيح حتى يحل طلسم الصمت ويعـود لـي السمع والبصر والفؤاد، وأسترجع قرابتي بالأشياء؟

الوقت يمضي بي إلى هدأة في الليل تسودها مادتـه الجليلة نقية من شوائب الأصوات. أسلمت نفسي لليل يملأني بجوهره السحيم. ألم تكن هذه الهدأة في الليل موعدي؟ كيف أخذني عنها النوم ليالي وليال؟ لكني هأنـذا الآن. الأشـياء تصمت حولي فيصحو داخلي وينبض. تخمد الحقائق خارجي فتتوهج حقيقتي وتزدهر. تسيل الدموع دافئة علـى وجهـي. هذه الدموع ليست فيض كآبتي وقهري، إنها تنهمر من حزن رائق، من حزن شاف تئن أعضائي تشوقًا إليه ونعمـة بـه. أفرح بنفسي عائدا لنفسي. أنتبه في رقادي فأمتلـك البهجـة وتأتيني النقرات على رق طبلة السحور تولد بعيدة على حافة أقصى ما يطوله وعي.

إن الرنين الرائع لم يخرس أبدا، إنما أنا الذي نسيت، وأنا أذكر الآن تصرخ داخلي فرحة مبلولة بـدمعي، فرحـة تنشئني إنشاء، طفلاً غضا أهتف باكيا مهتاجا: " يـا أمـي! أمي! لم لم توقظيني للسحور؟" وجه أمي حنون كما لم يكـن وجه أم، تكلمني معذبة الملامح بحنان وجهها: " يا بني كـم أشفق عليك من ساعة ليلية غريبة في الأوقات!" أنتحب لأمي مفطور القلب بوجيعة الأمانة الثقيلة المقدورة. أقول لهـا: " يا أمي! هذه الساعة موعدي، والضرب على الرق علامتي، والفوت مقتلي!" تغمض أمي عينيها وتطـوح وجههـا إلـى اليمين وإلى اليسار تعالي تباريح الفكر والظنون، تقول لي: " آه يا بني! كم أشفق عليك من اللحاق إشـفاقي عليـك مـن الفوت! يا طفلي! يا بن رحمي! حشت عنك الأقـدار بيـدي، بينا أرضعك لبان قدري!" وصوت الطبلة يقترب ، إيقاعهـا الغريب بعيد غائر سحيق يتسلق من العـدم حافـة الكـون اللانهائي، يدب في شسوعه مقتربا من قلبي وئيد الخطو، لكن الصوت في عروقي وفلذات لحمي، أدنى إلي من نبضي ومن خوفي، يأخذني إليه، يلغي خواطري، يخلي رأسي من الفكر الأخرى.

أتوسل لأمي الحانية بوجهها على وجهي، وأبي الجهم الرحيم، الحاني كما كان أبدا. قال لي معاتبا: " ألست يا بنـي قلت أنك مستيقظ لمواعيدك وحدك؟" نـدمت علـى حمقـي ورأيت جريرتي. ذللت وهنت. قلت معترفًا:" لقد كان ذلـك غروري يا أبي، وكنت ظننته كبريائي، موهه علـي حسـن قصدي، فلا تأخذني بجهالتي وقلة تجربتي! خذا بيدي يا أبي وأمي!! إنني إن فاتني موعدي ذبلت وضويت، نفقت مجردا من الانتصار بالموت!"

يزداد صوت الطبلة اقترابا، ويزداد خوفي أن يـأبى أبي علي مساعدته، أنظر متوسلاً حتى أرى إقبال أبوي علي. أسلم يدي ليدين حانيتين، أبي وأمي عن يميني وشمالي، يـد أمي صلبة خشنة ويد أبي سمينة ناعمة. وجه أمي فيه تعـب النهار والهم بمواعيد الليل والقلق من أجل غد، وجه أبي فيه أنفاس من قراءة الشيخ أحمد المبحوح الكسير الصوت. أقوم. وهني مسنود من يميني وشمالي بحول أبي وصـلابة أمـي. أقوم. رجلاي حائرتان، لكنني معلق طائر على مـتن حنـان أبوي. غرفتنا تزحمها أنفاس نوم إخواتي وأخواتي ورائحـة إناء البول، وأنا أرقص معلقًا فرحانًا والطبلة تهوى إلي.

المصباح الكهربائي صحا على قـوة التيـار التـى اكلتمت في هدأة الليل. ازدهى النور على وجـوه مخلوقـات وسط دارنا، إخوتي وأخواتي، معيزنا وخرافنـا والكـلاب، الحمائم والدجاجات والبطات السمينات. كذلك بقرتنا السمراء الفريدة، وجاموستنا العديمة المثال، الاثنتان أطلتا مـن بـاب الزريبة على وسط الدار، نظرتا صامتتين دهشتين. زجرتـا عجليهما بين أرجلهما أن يحمقا، يثبا أو ينطا. الكل أحـاطوا بي، يختلط الضحك بالزعيق بالثغاء والقراق والنباح، ومـن فوق ذلك كله صوت الطبلة قادم، يأخذني من الفرحـة إلـى الفرحة الأعلى . انفتح الباب الكبير فانفرش الضوء شـاحبا مرتجفًا على أرض الشارع في جلال العتامة الفضية. أتأمـل ظلي معلقًا بين ظلي أبي وأمي ناكسا منصتًا. الصوت يـرن على كتلة واجهة دار الحريري قبـالتي، تنفطـر الملامـح الحجرية وتعاني الجدران قدامي كأنما فـي صـميم غلـيظ الطوب قلوبا شقيقة لقلبي. يقترب الصـوت، أدرك اقترابـه، وكيف سيكون حضوره وشهوده، وكيف سيبتعد مرة أخرى، يغيب في غور سحيق حتى يشبه البدء الختام، يلتئمـان بـلا

ثغرة فينفيان الغياب. وأنا أستحضر اكتمال الـدورة، أعـيش الرقبى والتحقق والانصرام في تعاقب ملهوف وفرح وأسى.

والصوت يقترب، قادما علي من كل صوب، متفجر في من داخلي، يهزني، يرجفني، ينثرني رمادا في كل حبـة منه صوت ورجع، شوق ودمع. إنني أنا هذه العتامة الفضية الجليلة، ندى بارد الأعضاء وخائف يسع هذه الدنيا خـوفي. أفرد ضراعتي على شسوع العالم، مغمض العينين، شـامخ الأنف ممدود الذراعين، مبسوط الكفين عرقانًا ودامعا.

والرجل يقترب. يحمل الطبلة على كرشه، مربوطـة من حبلها حول كتفيه وإبطه، يضرب رقها بعصا في يمنـاه، بينما بيده اليسرى يبسط على الرق في الناحية الأخرى قشرة غاب تئز في الجلد كلما حمى وطـيس الضـرب. والخطـو احتدم متناسقًا إيماء اليد ودبيب الأقدام فـي تشـكيل مصـر موشك منقض.

لا فرار. جامد في مكاني أنظر، والرسم على صفحة العتمة الفضية ينبعج في عبث مزر بأصول الأشكال وأناقـة الرسوم، وهو أيضا يتراقص بلا رصانة، ويتقافز في خفـة. من أين إذن ذلك التكبر الثقيل الخطو الجهم الملامح المصعر

الخد، أبأنه من صفق الرق بالعصا تلتحم السماء بالأرض في دوي مروع؟ خفيت العلة واحتدم الصوت يمتلـك الحـواس حتى الذهول وحتى يشتبه جوهرا الصمت والضجة، وحتـى ما يمتاز سكون الليل عن عربدة الطبلـة. خـرس كلاهمـا، خرس مقطوع اللسان مفعم القلب بمعنى لا سكة إلى استكناه لغزه.

حينما صار حامل الطبلة في شباك بصري عرفتـه. في دوخاني وتشتت وعي عرفته. نعم! إنه الشابوري بعينـه. بكل طفولتي ضحكت، بكل شقاوة الطفولة تقافزت معلقًا فـي يدي أبوي، تساءلت عن هوان الطبلة حتى يحملها ويدور بها رفيق اللعب الأبله السخيف هذا؟ ثم إنني مما تفكـرت فيـه انكسفت. رصنت حتى رأيت أنه ليس للطبلة سوى هذا الكيان الشاذ العجيب يستنطقها سرها ويروع بها الدنيا فـي سـاعة هامدة متفكرة من ليل رمضاني إن غمض جفنه لا ينام قلبه .

لكن لا. ليس هذا الشابوري الذي عرفته وهو أيضـا ليس الشابوري الذي عجزت عن معرفته. إنه حالـة ثالثـة مشتقة مما يلايسنا من حال يستبهم كلما اشتد الدوي في غياب حتى الذهول، وحضور حتى انتفاء الماضي والآتي، وحتـى

يكون كل التعبير تساؤلاً ملحاحا يدق بقبضة من حديد علـى حافظة الدنيا نشدانًا لإجابة منسية.

مجذوب في ذكر أم مأخوذ في زار تدق له العناصر عاصفة إيقاع ترتج عليه الأرض حيث نقف. راقبت قـدمي الشابوري وكيف تتقدمان تطآن ظلي ، وكيف داسا قلبي وأنا أنظر لا أريم. ثم إن الطبل مضى. لم ينصرم، إنما آل إلـى محاق في دورة مقدورة أبدية. رفعت عيني أسأل واجهة دار الحريري قدامي، جامدة في العتامة الفضية. قبضت على يدي أبي وأمي مرتاعا، وهما حدبا على ارتياعي. آه! لقـد أشـبه البدء الختام وانتفى الغياب.

ضغط أبي على يدي وحنت أمـي بوجههـا علـى وجهي . كلمني أبي قال لي: " كانت هذه طبلة السـحور يـا بني!" حررت يدي برفق من يدي أبوي. وقفت وحدي وهمـا انسحبا إلى غياب يحيط به تذكري وتشوقي وتحناني. وقفـت وحدي لا ظل إلا ظلي. كلمت ذكرى أبي:" نعم يا أبي! وأنـا قد أدركت موعدي!" قال أبي وهو محجـوب عنـي: " هـل

نوقظك للسحور كل يوم يا بني!" قلت:" إنني بعد ذلك سـوف أصحو لموعدي وحدي!"

دموع دافئة تسح على وجهي وأنا راقد في فراشـي على ظهر الفرن في غرفتنا في دارنا القديمة وبقايا صـوت الطبلة مازالت في أذني. قمت، اعتدلت جالسا أنصت للرنين المبتعد وأتأمل ما حولي. هذه دارنا. دار موتانا ودار الأحياء منا، تختلط الأشباح بالأشباح، الكائن بالذي كـان. يترافـدان والنهر لا ينضب ماؤه.

جررت إلي صحفة طعامي. أمضغ لقيماتي مالحـة بطعم دموعي تنهدت أهذي: " إنني لم آكل أطيب مما طبخته لي أمي، لكن الواحد يأكل أيضا!" أكلت ونويـت. مـن غـد أخرج. يمتلئ قلبي بوسط دارنا، أحبه كمـا أحببتـه أبـدا. وسوف أنظر في أمر فداني الصغير. رقدت مغمضا يقظانًـا وصوت الطبلة ما زال هناك. تنهمر الـدموع مـن عينـي. أهمس متسائلاً وصوت الطبلة مازال هناك. تنهمر الـدموع من عيني. أهمس متسائلاً في حرقة بكائي: " ما هـي طبلـة السحور؟ طبلة السحور.. ما هي؟"

والرجل يمضي به في ليل الحارات كتلة من الظـل في شفيف العتامة والقرية كلها قلوب مشدودة الجلد مسـلمة للأصداء العميقة الغليظة. الإيقاع مبهم قادم من أعماق الوقت ومنته فيه، ديمومة مدورة باهظة نابضة، بينـا رق الفـؤاد المستاب نهب للصوت وللتذكر.

القاهرة في ١٩٨٦/١٠/١١